الأصول الجمالية
فى الدراسات النقدية عند شوقى ضيف

د. محمد عزيز نظمى

نستهدف من عرض هذا البحث – فى مناسبة تكريم رائد من الرواد، تسجيل صفحات مجيدة مزدهرة عن أصالة هذا الرائد، من خلال إبداعاته العبقرية، فى مجالات التراث واللغة والأدب والنقد، خلال حقبة تاريخية تركت بصماتها، على تاريخ الفكر والأدب والحضارة فى مجالات الثقافة المصرية.. وإنا نحن نحس بادرة الوفاء هذه، والعطاء الذى بذله أستاذ الأساتذة، فكان بمثابة نبع فياض ثرى على بلدته وأمته.

وإنا نتبين كذلك بموضوعية، وحياد علمى، تلك الإضافات الواضحة فى تاريخ الثقافة، التى كان لرائدنا الفضل كل الفضل فيها، فكان ذلك باعثًا على حركة التجديد، والأصالة، مما يجعلنا بداية نفخر ونعجب بتلك المحاولات الجادة والجديدة التى قام بها.

ومن ثم يتعين علينا أن نضع قضية التراث والتجديد فى تاريخنا الأدبى والثقافى، فى وضعها الصحيح، فلا نتجاهل مأثرة من مآثره ونقرر فى حياد وأمانة أن ابن مصر، وليس ابن دمياط فحسب قد حمل مشعل الثقافة، ولواء الأدب والنقد طوال سنوات من تاريخ مصر، عاليًا وكان دوره الرائد مشهودًا بعلمه وبفضله.

ولعل السمة الظاهرة فى دراسات رائدنا الأستاذ الدكتور شوقى ضيف هى الأصالة من ناحية، والتجديد من ناحية أخرى، تلك كانت السمة الواضحة المعالم والتى تتبدى لمن يمعن النظر فى سياق دراساته ومنهاجه النقدى.

ويتعين على الدارس لتراثه أن يستقرى منهاجه الواضح من خلال دراساته، وإبداعاته فى مجالات التراث والأدب، وتاريخه والدراسات النقدية والتراجم، ومنه اللغة والبلاغة، وقد آثرنا تحديد الموقف منذ البداية ومنذ أن أخرجنا دراستنا المتواضعة فى مجال الاستطيقا، بعد الدراسات الجمالية وفلسفة الفن أن نتابع تلك الجهود الخلاقة والتفسيرات الجادة التى تتميز بالموضوعية

والربط بين الأصالة، والمعاصرة من ناحية أخرى. وبهذا المعيار حاولنا جاهدين أن نطبقه على إبداعات رائدنا فى دراساته الأدبية والنقدية. فتبينا منزلته، وأصالته، والتى تتضح أمامنا بجلاء، فى محاولة استكشافنا للأصول الجمالية (أعنى الاستطيقية) لدراساته النقدية، وتفسيراته لمذاهب النقد والأدب العربى قديمًا وحديثًا، وسنبين أيضًا النزعة التكاملية فى المنهاج النقدى لديه، التى جمعت بين النظرة الفنية والتاريخية فى شمول واتساق عضوى، تجاوز مفهوم البنائية وأنساق الثقافة، فهو يؤكد الصلة العضوية بين الشعر والتصوير التشكيلى، والموسيقى، وكأننا أمام رأى عالم الجمال الفرنسى «أتين سوريو» الذى يؤكد ارتباطات الفنون الجميلة جميعًا فيه، فيتجاوز بذلك مفهوم محاكاة المحاكاة فى الفن، كما قرره من قبل كل من أفلاطون وأرسطو إلى مفهوم آخر، هو الارتباط أو التكوين العضوى بين روافد الفنون الجميلة، بما فيها فنون الأدب المختلفة (من شعر ونثر وقصة وخطابة الخ...) إلى مفهوم جديد يستند إلى روابط ثلاث:

١ - الرابطة الأولى وتتحدد فى الخيال الإبداعى المستوحى من وجدان الفنان وخبراته الحسية واللاشعورية.

٢ - الرابطة الثانية: وتتحدد فى الرؤية الجمالية والصور والمشاهد المستوحاة من الطبيعة أو الخيال.

٣ - الرابطة الثالثة وتتحدد فى الإلهام أو الحدس الجمالى، والإشراق المعبر عن كيفية إدراك الصورة الجمالية الخلاقة أو المبدعة، التى تمر بمراحل أربع، تبدأ بالإعداد، أو التحضير، ثم بالحضانة، أو التمهد والاستغراق، ثم بالإشراق، ثم بالتعبير أو التنفيذ.

كما نجد أستاذنا (ضيف) يحدد منهج الحكم الجمالى على الأثر الفنى من خلال الذوق المتمرس الخبير المستوعب، لأصول التقنية الفنية وعناصرها الجمالية، وحذق وسائل صياغة التجربة الجمالية فى ضوء ثلاثة محاور أو معايير أو مقاييس:

١ - أول هذه المقاييس هو البعد أو المحور التاريخى والعصر الاجتماعى.

٢ - ثانى هذه المقاييس هو البعد، أو المحور الفنى، أو الجمالى المعبر عن تطور المضمون أو المحتوى، وكذا الشكل أو الصيغة فى إطار لغة التعبير سواء أكانت أنغامًا أم ألفاظًا أم ألوانًا.

٣ - ثالث هذه المقاييس هو البُعد، أو المحور الرابط الحضارى بين التراث أو الأصالة، وبين التجديد أو الحداثة أو المعاصرة.

ويمكن القول بأن (الدكتور ضيف) قد رسم معالم الطريق إلى علم جمال أدبى عربى، من خلال دراساته النقدية للنماذج الفنية حيث وضع القواعد والتأصيل النظرى لها ممثلاً غنياً عرضه بمؤلفاته القيمة عن مذاهب النقد والفن والشعر والنثر، ودراساته عن البحث الأدبى ومناهجه.

ويكفى أن نستوعب إشارته حول تطور الفكر الجمالى بداية من أفلاطون الذى ذهب إلى أن كل جمال حسى، أو إبداعى، أو عقلى مرده المثال الخالد فى إطار نظريته عن عالم المثل والجمال المطلق، بينما ذهب أرسطو إلى القول بأن الجمال يتمثل فى تناسق التكوين، ثم ساد فى العصر الحديث المفهوم القائل بأن الجمال هو ما يتعلق بالإحساس، أو بالشعور دون الخلط بينه وبين المنفعة، أو الأخلاق فتحددت بذلك معانى الجمالى بوضوح فى مصطلح الاستطيقا Aestherica على يد الفيلسوف الجمالى الألمانى جوتليب مجارتن (١٧١٤ - ١٧٦٢)، ثم تعددت الدراسات الجمالية على يد كانت وهيجل، وشوبنهور، وجويه، وكروتشه، وتين، وتولستوى، وسانتيانا، وديوى وغيرهم.. وعندما يؤصل الأستاذ ضيف كنظيره الجمالى أنه من الضرورى أن تستند التفسيرات النقدية على أسس واضحة ومحددة، من خلال البعد التاريخى لتطور النقد الأدبى، منذ أرسطو الذى يرى أستاذنا أنه يكاد ينفرد بمنهجه العلمى الدقيق فى محاولة لوضع نظرية كاملة للمأساة أو التراجيديا، وتمتد الدورة الأولى للنقد الأدبى حتى نهاية القرن النامن عشر الميلادى، وتتميز هذه المرحلة بإشارات وملاحظات مبهمة غامضة تخلب الأسماع، ولكنها لا تجعل العقول تصغى إليها، بينما تبدأ الندوة الثانية، أو المرحلة الثانية مع مستهل القرن التاسع عشر الميلادى، حيث يحاول النقاد وضع نظرية نقدية ذات صبغة منهجية علمية، من منطلق العلوم الطبيعية أو الفيزيائية، فأقاموا ما يمكن أن نسميه (بالتاريخ الطبيعى للأدب) وطبقوا تصنيفات وتقسيمات الطبيعية على فنون الأدب، متأثرين بالتطورية الدارونية من ناحية، وبمذاهب وقوانين الحضارة والبيئة والجنس والعصر من ناحية أخرى، بل أفسح المجال أيضا للدراسات السيكلوجية والاجتماعية من خلال التفسير الفرويدى، للظاهرة الأدبية أو الفنية، وكان لكل هذه المؤثرات أثره الواضح فى نشأة النقد، وتطور مناهجه وتحليل الأدب والتراجم الأدبية من خلال تفسير معنى الفن والقيمة الجمالية، وخصائص الشعر والموسيقى، والتصوير ووسائل التعبير، أو الصياغة والأوزان فتجاوز النقد المفهوم الثلاثى للبناء الفنى للأدب من ثلاثية وحدة الزمان والمكان والموضوع، إلى أنماط جديدة تمثل فى النتاج الفنى للقصة والمسرحية والقصيدة.

ومن خلال عرض أستاذنا الرائد لنشأة النقد وتطوره يبدأ بالحضارة اليونانية - وإنا نعرض رأيه مع شىء من التحفظ - فعلى حد قوله «إن اليونان أسبق القدماء إلى وضع أصول

النقد وقواعده، جعلهم ينتجون الفلسفة ومجالات أخرى من المعرفة، بدأ بنتاج الشعراء القدامى فى ملاحمهم الأسطورية وبطولاتهم الخارقة، مع هوميروس إبان القرن التاسع ق.م. فى الإلياذه والأوديسة، ثم عند هيزيود فى القرن الثامن ق.م. وكان العهد الأول لتاريخ الفن الأدبى، هو الرواة، ثم التدوين الذى أبرز الشعر التمثيلى إبان القرن السادس ق.م. حيث تعدى وصف الشعراء حياة الآلهة والأبطال إلى الحياة العادية وموضوعاتها الاجتماعية. والسياسية، والفلسفية، فها هو ذا اريستوفانيس يؤلف ملهاته (السحب)، ممثلا الصراع بين الفكر والدين الوثنى للعامة، ثم يتابعها بمسرحية (الضفادع)، مجسما الصراع بين القديم والجديد أو بمعنى آخر صراع الأجيال على لسان شخصياته المحورية اسخيلوس ويوريبيدوس، ومع إطلالة القرن الخامس ق.م. يرقى الفكر العقلانى الفلسفى فيكثر الجدل والسفسطة، ونجد محاورات سقراط ثم أفلاطون بين جموع الفلاسفة، والسوفسطائية، تنتهى بمحاولات أرسطو لوضع كتابه البيوطيقا، أو الشعر،ثم الريطوريقا أو الخطابة متابعًا بذلك ما كتبه أفلاطون فى محاوراته ايون، والجمهورية، وقولنا بالتحفظ السالف الذكر مرجعه أن الأدب المصرى القديم كان نبعًا للأدب اليونانى.

ومن خلال العرض التاريخى لتاريخ النقد الأدبى، يطلق رائدنا الدكتور شوقى ضيف على النقد الأدبى العربى فى تلك الحقبة قوله.. «إن النقد العربى كان فى جملته نقدًا عمليًّا يتصل بالجزئيات ولا ينفصل عنها.. فقد كان محوره غالبًا البيت والعبارة، ولم ينظروا فى الأدب، أو الشعر نظرة عامة، بحيث يمكن القول أن نشاطهم النقدى كان أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص.. ومن الصعب أن نجعل لهم فلسفة جمالية، أو نظريات نقدية بالمعنى الدقيق..».

وفى مجال المقارنة لتاريخ الأدب فى العصور الوسطى بإيطاليا وفرنسا، يذكر أستاذنا الدكتور أن الأدباء تقيدوا تقييدًا شديدًا خلال القرن السادس عشر، والسابع عشر فيما يختص بفن المسرح وقواعده، ثم خضعوا للقواعد الكلاسيكية وأصولها الدراسية، ثم ظهر فى القرن الثامن عشر نزعتان من النقد: نزعة تراثية تستند إلى قواعد وأصول الأدب اليونانى، والتقيد بقواعد أرسطو، ونزعة أخرى مغايرة مجددة ظهرت على يد «جراى» (١٧١٢ - ١٧٧١م) بانجلترا بحثا عن آداب عصره، والتغنى بالطبيعة وعلى يد ديدروا بفرنسا (١٧١٣ - ١٧٩٤) داعيًا إلى نبذ التراث والتقاليد القديمة، بينما ظهرت على يد علماء الجمال المعاصرين الذين ساروا بالدراسات الجمالية سيرًا كبيرًا.

وسبق التنويه إلى أن أستاذنا ضيف أقام منهج التحليل النقدى والتقويم الجمالى Jugewanl de Valuera على أساس استطيقى، استنبطه من افتراضين جماليين:

الفرض الأول: وهو الوظيفية فى الفن فى إطار السمات الجمالية، أو العناصر الجمالية الخالصة، بفضل قوى التفكير التى تهدينا إلى الحقيقة وقوة الإرادة التى تهدينا إلى الخير، وقوة الإحساس التى تهدينا إلى المتعة الجمالية: أو بمعنى آخر تكامل المفهوم القيمى للجمال، فعارض بذلك النزعة القائلة، بأن الفن للفن كما عارض النزعة القائلة بالمنهج التأثرى، كما عارض أيضا أصحاب النزعة الموضوعية فى الفن، وأكد من جهة أخرى الأصول الجمالية أو القيم الجمالية بصفة خاصة والقيم بصفة عامة.

الفرض الثانى وهو التكاملية فى الفن فى إطار الإفادة من المناهج المختلفة، والنزعات المتعارضة، ما بين النزعة السيكلوجية التى تنظر إلى ممارسات الفن لتجارب مستقلة، نتيجة المعاناة لدوافع نفسية، أو نزعة اجتماعية نرى الالتزام فى الفن لقضايا اجتماعية، تتوافق منها حرية الفنان وإلزام المجتمع له فى وحدة متسقة، تجعل من الناقد يعين من كل هذه الطرق والنزعات فى تفسيره، وتحليله، وتقويمه للعمل الفنى فى إطار متوازن بين الفن وقيمة الجمال، مع الدافع المعاش وقيم الحياة بما يتحلى به الناقد، من عدالة وأمانة فيضع موازين عادلة لا تميل مع الهوى، أو التعصب وليس أدل من عبارة يسوقها أستاذنا ضيف قوله «.. والناقد الحق لا يرفع شيئًا فوق قيمته ولا ينزل شيئًا دون قيمته...».

ويخلص أستاذنا إلى وضع قواعد تقويم العمل الفنى على أساس استطيقى آفاقه الحياة، وقوامه الخبرة الجمالية، وسبيله الذوق، ولكى يدلك على نظريته، يطوف بنا بين آراء الجماليين، أمثال جريو، وبوبحارتن، وكانت من خلال تحديد مواقف المدارس الفنية، كالرومانسية، والكلاسيكية، والرمزية، والسريالية، والتأثيرية، والتعبيرية.

وفى مجال الاستشهاد بأمثلة يتناول أستاذنا نظرية الشعر، فيقرر بقوله «وليس معنى أن شعراءنا المعاصرين، ينفصلون عن أسلافهم، وتقاليدهم الفنية الموروثة، فما يزال السابقون منهم يحتفظون بشخصية شعرنا، ومقوماته اللفظية، مع التمثيل الدقيق للشعر العربى، وأنماطه فهم مجددون وفى الوقت نفسه متصلون بالقديم، أهلتهم لها ثقافتهم وشعورهم وبيئاتهم وعصورهم ومواهبهم، التى تعبر عن شعوبهم، ومثلها العليا من الخير والحق والجمال. وبذلك لم يعد الشعر عندنا ألفاظًا ترصف رصفًا لتؤلف قصيدة فى موضوع تقليدى، بل أصبح عملاً أدبيًّا جديرًا بالعناية والاهتمام لما يتضح فيه من ذات الشاعر وتراث أمته..»، ويستطرد بقوله «ومن المحقق أن الذين تعمقوا فى الآداب الغربية، واستمدوا منها فى بعض منها صورًا من شعرهم، ولكنه من المحقق أيضًا أنهم لم يفنوا أنفسهم فيها. بل ظلت لهم شخصيتهم العربية..» وبهذا يؤكد أستاذنا الملامح والسمات المميزة للفن والأدب، من خلال البعد التطورى فى تاريخ الأدب. من قوله «.. ومن المعروف فى تاريخ الآداب من عصر من عصورها فى أمة من الأمم، لا يمكن أن ينفصم عن

العصور التى سبقته، وكأن هناك تيارًا شائبًا خلف العصور المتعاقبة، يعمل فى القديم ولا يزال يعمل فى الجديد، فكل أدب له ماض يبنى عليه يمد الحركة الدائبة فى الآداب، إذ يحيى كل جيل ما سبقه من أجيال لا من الناحية الجمالية وحدها بل أيضًا من ناحية الأفكار والمشاعر...».

ويشير أستاذنا إلى أهم وأبرز عناصر الجمال الفنى فيما يلى:

أولا: الوحدة العضوية للعمل الفنى.

ثانيا: التطابق بين الصورة والمضمون فى العمل الفنى.

ثالثا: خصوبة الخيال الإبداعى فى العمل الفنى.

رابعا: الأصالة فى بلورة العمل الفنى.

خامسا: دعم القيم الإنسانية فى العمل الفنى.

ثم ينتقل أستاذنا إلى الوسائل الإعلامية للأدب وفنونه من خلال الصحافة والفن السينمائى والمسرحى والقصصى، وهو بذلك يعطى أبعادًا لوسائل ذيوع وانتشار الأدب وفنونه المختلفة.

نظرة تقويمية:

يشغل النقد الأدبى والدراسات البحثية، والتحليلية لبعض النماذج الأدبية والتراجم الشخصية لبعض الشعراء القدامى، والمحدثين التى تناولها أستاذنا الدكتور ضيف بالدراسة والبحث، مجالاً واسعًا فى دائرة بحوثه ومؤلفاته، ولكن أبرز ما ضمنته هذه الدراسات النقدية أساسًا استطيقيا، أى جماليًّا لكثير من النظريات والمذاهب النقدية، اتضح فى تلك الأبعاد والمحاور والأسس والقواعد التى أقام عليها دراساته، فكانت بذلك إرهاصًا أو تمهيدًا ومدخلاً طبيعيًّا لعلم جمال أدبى، له أبعاده وموضوعاته وتقنيته، التى يمكن للمشتغل بهذا المجال أن يستنبطها استنباطًا علميًّا وتطبيقيًّا.

ويجدر التنويه إلى أن ما يبتدًى للدارس فى نطاق النقد الأدبى أنه أقام أنموذجًا يحتذى به عند الدراسة التحليلية لفنون الأدب، قدمه أستاذنا الدكتور شوقى ضيف، كما أن منطلق هذه الدراسات الموضوعية بأجل معانيها وخصائصها، التى يتعين على الدارسين أن يضعوها نصب أعينهم عند الدراسة والبحث، ومما لا شك فيه أن ارتياد أستاذنا لبعض مسائل وموضوعات علم الجمال الأدبى، يعتبر إرهاصًا طيبًا لتنظير علم جمال أدبى عربى، كانت الدراسات النقدية والأدبية فى أمس الحاجة إلى قيامه.

وأخيرًا ونحن فى نهاية المطاف وبعد سفر طويل ومتعدد الاتجاهات بين فنون الأدب، نرى

إضافة وإبداعًا ومنظورًا جادًّا وجديدًا ألا وهو البعد الجمالى أو الأستطيقى، لأستاذنا الرائد الدكتور شوقى ضيف. له منا ومنكم أسمى التقدير وأجل الإعزاز لعمله الممتاز الإبـداعى، ولشخصه الكريم ولجهده العلمى الأصيل. له منا التقدير والتكريم.

د. محمد عزيز نظمى سالم
أستاذ علم الجمال المساعد
جامعة الزقازيق - فرع بنها
كليتى الآداب والتربية

obeikandl.com